

بناء الإنسان المستدام في فكر مالك بن نبي (من الاقتصادانية المادية إلى الاستدامة الإنسانية)

Building Sustainable Human Being from Malik bin Nabi's thought (From Material Economics to Human Sustainability)

ساعد هماش¹، (جامعة باتنة 1 الحاج لخضر)، saad.hemache@univ-batna.dz

2020-12-09	تاريخ القبول	2020-03-31	تاريخ الاستلام
------------	--------------	------------	----------------

ملخص

تسعى هذه الدراسة إلى التفصيل في كيفية بناء الإنسان المستدام من خلال فكر مالك بن نبي، وتبيين أسس الانتقال من الاقتصادانية المادية إلى الاستدامة الإنسانية، ولتحقيق ذلك سيتم استكناه مفهوم التنمية المستدامة بين المنظورين الوضعي والإسلامي، واستنباط مواطن ومعالَم الاستدامة في الفكر البنابي؛ كل ذلك وفق منهجية الوصف الكيفي والربط العلائقي والتحليل الفكري. واختتمت الدراسة باستخلاصها لعدة نتائج أهمها: أن مفهوم التنمية المستدامة من خلال المنظور الإسلامي أوسع وأشمل من المنظور الوضعي، وأما بناء الإنسان المستدام في فكر مالك بن نبي فهو الركيزة الأساسية للإقلاع الحضاري بمختلف مكوناته، يكون مستداما بتوجيهه ثقافيا وعمليا وأخلاقيا وروحيا ووجدانيا عن طريق التربية التي تعتبر بمثابة السبيل لبناء إنسان مستدام يمضي في التاريخ لتحقيق أهدافه، وأن الاستدامة الإنسانية في الفكر البنابي هي نتيجة حتمية لهذا البناء، ومفهومية الحضارة في الفكر البنابي تشمل وتتعدى مفهوم الاستدامة بالمنظور الوضعي، وذلك باستدامة روحية وأخلاقية مستمرة ومتواصلة في ثنايا التاريخ والمستقبل.

كلمات مفتاحية

إنسان مستدام، مالك بن نبي، تنمية مستدامة، استدامة إنسانية.

Abstract

This paper attempts to elaborate on how to build a sustainable human being through Malik Bin Nabi's thoughts, and to explain the principles of moving from material economics to human sustainability, To achieve this, the Islamic and positional perspectives on the human sustainability concept have been shed light on, and Bin Nabi's areas and features of sustainability have been identified, The qualitative description, relational linkage and intellectual analysis methods have been applied.

The study has revealed, *inter alia*, that the concept of sustainability, from the Islamic perspective, is broader and more comprehensive than it is from the positional perspective, that, according to Bin Nabi, building a sustainable human being is essential to a comprehensive civilized development, that the human sustainability is an inevitable result of that building and that the concept of civilisation comprehends the concept of sustainability from the positional perspective.

Keywords

sustainable human being, Malik Bin Nabi, sustainable development, human sustainability.

يعتبر مفهوم التنمية من المفاهيم الأكثر شيوعاً في عصرنا الحالي، ذلك أن التنمية هي كل ما يصبو إليه الإنسان، وهي مرافقة للتطور التكنولوجي الذي تشهده البشرية، فعملية التنمية والتطور مصطلحان متلازمان، فبالتنمية نتطور وبالتطور نمو ونزدهر، ولكن التنمية بمفهومها الحقيقي والفلسفي لا تشمل الجانب المادي للإنسان فقط، وإنما أساس التنمية أن تضم كافة أبعاد ومؤشرات الحياة البشرية من تنمية اجتماعية وإنسانية وتربوية وثقافية... الخ، والشيء نفسه إذا أتينا إلى مفهوم التنمية المستدامة فكل تعاريفها تصب في معنى واحد وهو استدامة الموارد الطبيعية بالكفاية والمحافظة على حق الأجيال القادمة، ولكن الإنسان باعتباره كائناً اجتماعياً يتشارك مجموعة من الخصائص والجوانب المتعددة لا تكفيه استدامة الموارد فقط، وإنما استدامة كل ما يتفاعل ويتشارك به مع الآخرين.

وتقاس أي حضارة إنسانية بما تغرسه في الإنسان من إنسانيته وتبث فيه روح الجماعة والتشارك، وجل المفكرين الحضاريين قدموا نظرة فكرية وبيدولوجية لمفهوم الحضارة، حيث تشترك وتجزم كلها في أن الإنسان عمود الحضارة وروحها، ومن بين هؤلاء المفكر الجزائري مالك بن نبي رائد البناء الحضاري الذي تطرق في كتاباته إلى الإنسان والاقتصاد والتنمية وكيفية النهوض بالأمة اقتصادياً وحضارياً.

وما بين التنمية والتنمية المستدامة وفكر مالك بن نبي الحضاري حول الإنسان والتنمية تأتي هذه الدراسة الموسومة بـ: **بناء الإنسان المستدام في فكر مالك بن نبي (من الاقتصادانية المادية إلى الاستدامة الإنسانية)**، حيث ستشتمل في ثناياها بالإضافة إلى مقدمة وخاتمة على محورين أساسيين، أولهما كتفصيل في مفهوم التنمية المستدامة وأبعادها بين الفكر الوضعي ثم استشفاف معناها من خلال القرآن والهدي النبوي، وثانيهما كمحور قائم على الاستنباط الفكري لتحديد مواطن التنمية المستدامة والتفصيل في كيفية بناء الإنسان المستدام في فكر مالك بن نبي، ثم التحول من الاقتصادانية المادية إلى الاستدامة الإنسانية.

1- إشكالية الدراسة وتساؤلاتها

أصبحت التنمية المستدامة الشغل الشاغل للتوجه العالمي، خاصة في ظل ما تعانيه الدول سواء النامية أو السائرة في طريق النمو من تدهور بيئي وتغير مناخي أثر على شتى مناحي الحياة، ورغم ذلك يبقى مفهوم التنمية المستدامة في المنظور الوضعي من المفاهيم غير المكتملة والناقصة، ومن جهة أخرى يعتبر مالك بن نبي من المفكرين الحضاريين، حيث سعى إلى تحديد شروط وأساسيات الإقلاع الحضاري من كل الجوانب والنواحي بما في ذلك الجانب التنموي الاقتصادي، فما بين التنمية المستدامة والفكر البنابي تتحدد إشكالية هذه الدراسة في استقصاء واستنباط مفهوم التنمية المستدامة من خلال بناء الإنسان في فكر المفكر الجزائري مالك بن نبي، وذلك بطرح الأسئلة التالية:

- فيم تختلف أبعاد التنمية المستدامة بين المفهوم الوضعي والمفهوم الإسلامي؟
- كيف يُبنى الإنسان المستدام في فكر مالك بن نبي وجعله محورا للتنمية المستدامة؟
- كيف يتم التحول من الاقتصادانية المادية إلى الاستدامة الإنسانية من خلال فكر مالك بن نبي؟

2-منهج الدراسة

من الناحية المنهجية يمكن اعتبار هذه الدراسة من حيث نوعيتها أو نمطها ضمن الدراسات والبحوث النظرية التحليلية، وتدرج بدورها ضمن الدراسات الأساسية في مدلولها العام وحقلها الشامل، لكونها بحثا وصفيا واستنباطيا، فالوصف باستخدام المنهج الوصفي القائم على الوصف والتحليل والذي وُظف لتحديد مفاهيم ومتغيرات الموضوع المتمثلة أساسا في التنمية المستدامة والإنسان المستدام والاقتصادانية والاستدامة الإنسانية، وأما الاستنباط فقد استخدم من خلال المنهج الاستنباطي للاستخلاص والاستنتاج وتحديد الإشكالية وتساؤلاتها، وإبراز أهم مؤشرات وأبعاد الفكر البنابي حول التنمية واستنباط المفهوم الشامل للتنمية المستدامة القائم على تنمية الإنسان القائد لقاطرة التطور والنهضة الحضارية.

3-أهداف الدراسة وأهميتها

تسعى الدراسة إلى تحقيق مجموعة من الأهداف أهمها:

- تبين مفهوم التنمية المستدامة في الفكر الوضعي وما يقابلها في الفكر الإسلامي من خلال القرآن والهدي النبوي.
- استنباط مواطن التنمية المستدامة من فكر مالك بن نبي من خلال الإنسان كمحور للتنمية والنهضة وتحريره من الاقتصادانية المادية إلى الاستدامة الإنسانية.

ومن خلال هذه الأهداف تتضح أهمية الدراسة في كونها تطرقت إلى موضوع الساعة ألا وهو التنمية المستدامة، ومحاولة تفصيل مفهومها الوضعي والشرعي، وكذلك إبراز محدداتها في الفكر البنابي، حيث يعتبر مالك بن نبي من أهم المفكرين الحضاريين المحددين لشروط النهضة والإقلاع الحضاري، وذلك بالتركيز على الإنسان كأساس ومحور للتنمية والنهضة الحضارية المستدامة.

4-ضبط المفاهيم الأساسية للدراسة

لتوضيح الرؤية وجب أولا ضبط وتحديد المفاهيم والمصطلحات الأساسية والمتمثلة في: الإنسان المستدام، الاقتصادانية المادية، الاستدامة الإنسانية.

أ-الإنسان المستدام: الاستدامة في معناها العام الاستغلال الأمثل للموارد المتاحة دون المساس بحق الأجيال القادمة في هذه الموارد، ولها عدة أبعاد منها اقتصادية وبيئية واجتماعية، وانطلاقا من هذا المفهوم يمكن تحديد مفهوم الإنسان المستدام على أنه الإنسان الذي يحمل فكرة الاستدامة ذهنيا

وعملها، وسيتم التفصيل في محددات الإنسان المستدام ضمن ثنايا هذه الدراسة ومن خلال ما أورده مالك بن نبي لاستنباط هذه الفكرة.

ب-الاقتصادانية المادية: في مفهوم مالك بن نبي هي مظهر للاقتصاد المزيّف الذي يتناقض مع مفهوم التنمية الحقيقية، بما يحمله هذا المفهوم من فوضى وعشوائية وتبذير وسوء تسيير وزراعة للمشاريع في الهواء؛ اقتصاد غير مؤسس على مصادر الثروة الحقيقية (الإنسان)، فهو اقتصاد ريعي هش، يؤدي حتما إلى واقع الإفلاس والعبثية.

ج-الاستدامة الإنسانية: تتحقق الاستدامة الإنسانية إذا حققنا الإنسان المستدام، والاستدامة الإنسانية هي التنمية بمفهومها الحقيقي والاقتصاد القائم على العدالة والتخطيط والاستشراف وعدم العبثية والعشوائية والتبذير والاسراف، وهي استدامة لكل تجاذبات الإنسان المادية منها والروحية.

أولا/ في فكرة التنمية المستدامة بين المفهوم الوضعي والمفهوم الإسلامي

تعتبر فكرة التنمية المستدامة ركيزة هذه الدراسة لأن تحديد مفهوم الإنسان المستدام والاستدامة الإنسانية لا يمكن إلا بالتفصيل في مفهوم التنمية المستدامة، وباعتبار فكرة الاستدامة كفكرة تتجاوزها شتى الأيديولوجيات والاتجاهات والمفاهيم، فسيتم تناول هذه الفكرة ضمن المفهوم الوضعي والمفهوم الإسلامي، ذلك أن الإسلام دين عالمي لم يترك أي متعلق بالبشرية إلا وتم التفصيل فيه سواء بالقرآن الكريم أو الهدى النبوي الشريف.

1- في مفهوم التنمية المستدامة ضمن الفكر الوضعي:

استُحدث مفهوم التنمية المستدامة في أواخر القرن الماضي كحتمية لمسايرة ندرة الموارد ومجابهة التغير المناخي والتلوث، وهو يعتبر كمفهوم مطور لمفهوم التنمية الاقتصادية وكحل للتصالح مع البيئة بعد ما أحدثته اليد البشرية من أضرار متعددة وكثيرة - خاصة بعد الثورة الصناعية- على البيئة واستنزاف مواردها والتسبب في التلوث بمختلف أنواعه.

و تم تناول مفهوم الاستدامة في العديد من الدراسات والفعاليات مثل استراتيجية المحافظة على العالم كما نشرها الاتحاد الدولي لحفظ الطبيعة، والصندوق العالمي للطبيعة وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة عام 1980، وتقرير "العناية بالأرض" في عام 1991، وفي تقرير "اللجنة العالمية" المعنية بالبيئة والتنمية في عام 1987، كما نوقش المفهوم في مؤتمرات الأمم المتحدة في ستوكهولم عام 1972، وريو في عام 1992، وجوهانسبرغ في عام 2002. (الجيوسي، 2013، ص.20) وتم استعمال مصطلح «التنمية المستدامة» على وجه التحديد من خلال لجنة بروتلاند في عام 1987، ثم أصبحت فكرة مستخدمة على نطاق واسع في العديد من التخصصات مثل النقل والمياه والإسكان والسياحة. وحسب تقرير هذه اللجنة فإن التنمية المستدامة تعني: "القدرة على تلبية احتياجات الحاضر دون المساس بقدرة الأجيال القادمة على تلبية احتياجاتها الخاصة". (الجيوسي، 2013، ص.21)

وقد شكلت التنمية المستدامة مفهوما جديدا وثوريا في الفكر التنموي، إذ إنه وللمرة الأولى دُمج بين الاحتياجات الاقتصادية والاجتماعية والبيئية في تعريف واحد، وفي قمة الأرض عام 1992م، التي عقدت في ريو دي جانيرو كانت "التنمية المستدامة" المفهوم الرئيس للمؤتمر، والذي صدرت عنه وثيقة "الأجندة 21"، والتي تحدد المعايير الاقتصادية والاجتماعية والبيئية لكيفية تحقيق التنمية المستدامة لتكون بديلا تنمويا للبشرية لمواجهة احتياجات وتحديات القرن الحادي والعشرين، ثم شاع وانتشر هذا المفهوم حتى استخدم شعارا لقمة الأرض الثانية في جوهانسبورغ بجنوب إفريقيا عام 2002م (القمة العالمية للتنمية المستدامة). (كلاوي، 2013، ص.13)

فالتنمية المستدامة من خلال هذه القمم والمؤتمرات تعني أن يكون هناك تضامن بين الجيل الحالي والأجيال القادمة، بحيث تضمن حقوق الأجيال المقبلة في الموارد البيئية، وتمثل أهدافها في تحسين ظروف المعيشة لجميع سكان العالم، وتوفير أسباب الرفاهية والصحة والاستقرار لكل فرد. (كلاوي، 2013، ص.14).

وعرفها ماهر أبو المعاطي (2014) بأنها: "تنمية حقيقية مستمرة ومتواصلة هدفها وغايتها الإنسان، تؤكد على التوازن بين البيئة بأبعادها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، بما يسهم في تنمية الموارد الطبيعية، وتمكين وتنمية الموارد البشرية، وإحداث تحولات في القاعدة الصناعية، والتنمية على أساس علمي مخطط وفق استراتيجية محددة لتلبية احتياجات الحاضر والمستقبل على أساس من المشاركة المجتمعية، مع الإبقاء على الخصوصية الحضارية للمجتمعات" (أبو نصر ومدحت محمد، 2017، ص.81)

مما سبق يتبين أن مفهوم التنمية المستدامة منذ بداية تناوله إلى غاية اليوم لم يخرج عن الإطار الاقتصادي والاجتماعي والبيئي، من خلال الاستغلال الأمثل للموارد البيئية وتحقيق الكفاية والمحافظة على حق الأجيال القادمة وعدم المساس به لتوفير حياة كريمة ومكتفية في جميع المجالات، ومن هنا يتضح أن للتنمية المستدامة عدة أبعاد حسب المفهوم الوضعي أهمها البعد الاقتصادي والبعد الاجتماعي والبعد البيئي والبعد السياسي وحتى البعد التقني، ويمكن تفصيلها من خلال النقاط التالية. (أبو نصر ومدحت محمد، 2017، ص.ص.82، 83):

- البعد الاقتصادي، يتجلى في مفهومين: الأول يتعلق بالدول الصناعية ويتحدد من خلال خفض عميق ومتواصل في استهلاك هذه الدول للطاقة والموارد الطبيعية. والثاني خاص بالدول الفقيرة والنامية من حيث توظيف الموارد من أجل رفع المستوى المعيشي للسكان الأكثر فقرا في الجنوب.
- البعد الاجتماعي الإنساني، يتحدد من خلال السعي لاستقرار النمو السكاني وتطوير مستوى الخدمات الصحية والتعليمية وتحقيق المشاركة الشعبية في التخطيط والتنمية.
- البعد السياسي للتنمية المستدامة تتحدد معالمه من خلال توسيع فرص الاختيار أمام الناس، لجعل التنمية أكثر ديمقراطية وأكثر مشاركة لكل فرد بطريقة كاملة في القرار المجتمعي والتمتع بالحرية الإنسانية والاقتصادية والسياسية.

- البعد البيئي، ينجلي من خلال استمرار وتواصل التنمية وحماية الموارد الطبيعية وخاصة الزراعية والحيوانية والمحافظة على تكامل الإطار البيئي في تنظيم الموارد البيئية والعمل على تنميتها في العالم بما يؤدي إلى مضاعفة المساحات الخضراء على الأرض.
- البعد التقني، يشير إلى ذلك النمط من التنمية الذي ينقل المجتمع إلى عصر الصناعات والتقنيات النظيفة، التي تستخدم أقل قدر ممكن من الطاقة والموارد، وتنتج الحد الأدنى من الغازات الضارة حتى يتسنى الحد من التلوث وتحقيق استقرار المناخ.

إن المتأمل في هذه الأبعاد وكل تعريفات التنمية المستدامة سيدرك أنها تنمية مادية اقتصادية بحتة لكل مناحي الحياة الإنسانية، وإغفال الجوانب الروحية والنفسية، مما أدى إلى ظهور اختلالات تنموية في شتى المجالات وعلى كل الأصعدة، خاصة بين الدول الفقيرة والدول المتقدمة الصناعية، وعدم الإحساس بالمسؤولية الجماعية والتفكير في الآخر الذي هو جوهر الإنسانية، هذه المفارقة وعدم المزوجة بين التنمية المادية والروحية للإنسان لازال يشكل حاجزا لتحقيق تنمية مستدامة وعادلة وكاملة تجعل من عالم البشرية عالما مشتركا يتقاسمه البشر بعدل ومساواة وتنمية حقيقية.

2- في مفهوم التنمية المستدامة وشواهدا من خلال القرآن والسنة النبوية:

سيتم التطرق في هذا العنصر إلى مفهوم التنمية المستدامة من خلال القرآن الكريم والهدي النبوي الشريف بما يخدم أهداف الدراسة، ذلك أن فكر مالك بن نبي مستنبط ومبني أساسا على تعاليم الدين الإسلامي، وكل ما جاء به في عملية الإقلاع الحضاري بمختلف جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لم يخرج عن الإطار العام للإسلام وتعاليمه.

فالإسلام كدين عالمي ورسالة للبشرية جمعاء لم يترك أي موضوع متعلق بالإنسان إلا وفصل فيه تفصيلا دقيقا، فالله عز وجل بتشريعه للشرائع الإسلامية والنبي صلى الله عليه وسلم بتبيينه وتوضيحه للمعالم الحياتية الإسلامية، جعلنا من الإسلام الشريعة الإلهية التي جاءت بكل ما يخدم الإنسان، فالإنسان في حد ذاته من خلق الله عز وجل، وهو بخلقه له أعلم بما يصلح لحياته مما يضره، فكل مقاصد الشرع جاءت لجلب المصالح ودرء المفساد وهي الغاية الأسمى لكل دين سماوي حنيف.

ومن بين أهم المواضيع التي تناولتها الشريعة الإسلامية بتفصيل دقيق موضوع التنمية والاستخلاف في الأرض، ورسم معالم وحدود العلاقة بين البيئة والإنسان، وعدم التبذير والاسراف، والتخطيط والتفكير في كيفية الاستغلال بمراعاة حدود الله واتباع أوامره والانتهاز عن نواهيه.

وقبل التطرق إلى مختلف الشواهد الواردة في القرآن والسنة، والمحددة لأبعاد التنمية المستدامة، وجب أولا تبين مفهوم التنمية المستدامة من خلال الرؤية الإسلامية.

"فمن الجدير بالذكر أن مفهوم التنمية المستدامة في الإسلام أكثر شمولاً، بل إنه أكثر إلزاماً من المفهوم المناظر الذي تم تبنيه في أجنحة القرن الحادي والعشرين المنبثقة عن قمة (ريو)، فالنظرة الإسلامية الشاملة للتنمية المستدامة توجب ألا تتم هذه التنمية بمعزل عن الضوابط الدينية

والأخلاقية، لأن هذه الضوابط هي التي تحول دون أية تجاوزات تفقد التنمية المستدامة مبررات استمراريتها، وفي الوقت نفسه فإن النظرة الإسلامية الشاملة للتنمية المستدامة تعنى بالنواحي المادية، جنباً إلى جنب مع النواحي الروحية والخلقية. (الفتي، 2004، ص.7)

"وهكذا، فإن مهمة التنمية المستدامة في المنظور الإسلامي هي توفير متطلبات البشرية حالياً ومستقبلاً، سواء أكانت مادية أو روحية، بما في ذلك حق الإنسان في كل عصر ومصر في أن يكون له نصيب من التنمية الخلقية والثقافية والاجتماعية، وهذا بعد مهم تختلف فيه التنمية المستدامة في المنظور الإسلامي عن التنمية المستدامة في النظم والأفكار الأخرى، لأنه يعتمد على مبدأ التوازن والاعتدال في تحقيق متطلبات الجنس البشري بشكل يتفق مع طبيعة الخلقة الإلهية لهذا الكائن". (الفتي، 2004، ص.7)

وتعتبر التنمية المستدامة في المنظور الإسلامي عملية متعددة الأبعاد، تعمل على تحقيق التوازن بين أبعاد التنمية الاقتصادية والاجتماعية والبعد البيئي، وتهدف إلى الاستغلال الأمثل للموارد والأنشطة البشرية القائمة عليها من منظور إسلامي، ويؤكد هذا المنظور على أن الإنسان مستخلف في الأرض، له حق الانتفاع بمواردها دون حق ملكيتها، ويلتزم في تنميتها بأحكام القرآن والسنة النبوية الشريفة، على أن يراعي في عملية التنمية الاستجابة لحاجات الحاضر، دون إهدار حق الأجيال اللاحقة، ووصولاً إلى الارتقاء بالجوانب الكمية والنوعية للإنسان. (عشي، 2012، ص.146)

إن تحقيق أهداف التنمية المستدامة من منظور الاقتصاد الإسلامي يستند إلى تحقيق مقاصد الشريعة الإسلامية في حياة البشرية جمعاء، والأهداف التنموية النابعة من تلك المقاصد تنادي بتطبيق مفهوم الفلاح الإنساني، والسعادة والحياة الطيبة في الدنيا والآخرة، وقد ركز الدكتور "جعفر عبد السلام"، (الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية) على أهمية منظومة القيم الإسلامية في تحقيق التنمية المستدامة، مجملاً إياها في خمس قيم رئيسية، وهي: الاستخلاف، والعدل، والعمل، والقناعة والإيثار. (عشي، 2012، ص.147)

وشواهد التنمية المستدامة من خلال القرآن والسنة كثيرة ومتعددة، منها ما هو متعلق بالجانب المادي ومنها ما هو متعلق بالجانب الروحي، ويمكن ذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر:

- قوله تعالى: { يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ } {الأعراف، 31}، ففي هذه الآية أحل الله لعباده الأكل والشرب مما لم يحرمه ونهاهم عن الإسراف والتبذير، وهو الأساس الذي يقوم عليه مفهوم التنمية المستدامة، أي الوسطية في الاستغلال والانتفاع بالثروات والموارد الطبيعية دون إسراف أو تبذير، وهو ما يحفظ حقوق الأجيال القادمة بالانتفاع مما انتفع به من قبلهم.

- قوله تعالى: {وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ} الرحمن 7، بمعنى أثبت العدل في كل شيء، والميزان هو التوازن في الخلق وفي كل شيء، ومن أهم أصول التنمية المستدامة وركائزها التوازن والاعتدال، بين الإنفاق والاستهلاك، بين الاستغلال والترك، بين التبذير والإمساك.

- قوله تعالى: {وَأَلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} الأعراف 85.

- وقوله أيضا: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} الأعراف 56.

فكلتا الآيتين تناولت موضوع الإفساد في الأرض، وجاء بصيغة النهي في قوله تعالى "ولا تفسدوا في الأرض"، وعدم الإفساد في الأرض هو الركيزة الأساسية للفكر التنموي المستدام، فالإفساد يضر بحقوق الأجيال الحاضرة والقادمة، وهو من أكثر الأفعال المنهي عنها في القرآن الكريم والسنة النبوية، لأن الإنسان هو خليفة الله في الأرض يجب عليه الحفاظ عليها وصونها.

- روى البخاري عن أنس (رضي الله عنه) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن قامت الساعة، وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها" رواه البخاري في الأدب المفرد، وأحمد في مسنده، والبخاري. ورواية أحمد: "إن قامت على أحدكم القيامة وفي يده فسلة فليغرسها".

ففي الحديث النبوي الشريف دعوة من رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام إلى الغرس والزرع والتشجير، ولأهمية هذا العمل في الإسلام دعا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى القيام به حتى وإن قامت الساعة، والغرس والزرع والتشجير من أهم أعمال المحافظة على البيئة والمحيط الحيوي للإنسان والتي بدورها تسهم في تنمية الفكر التنموي المستدام لدى عامة الناس.

- عن النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا: كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا" أخرجه البخاري في صحيحه.

فنلمس مفهوم التنمية المستدامة من خلال هذا الحديث فيما يسمى بوحدة المصير المشترك، فمن أهم أهداف الفكر التنموي المستدام الحفاظ على المحيط الحيوي للبشرية حاضرا ومستقبلا، ولا يتأتى ذلك إلا بالتحام الجهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإصلاح في الأرض وعدم الإفساد. ومما سبق يتبين لنا أن النظرة الإسلامية للتنمية المستدامة ومحدداتها لا تقتصر على الجانب المادي فقط، بل تتعداه إلى الجانب الروحي بأعلى مستوياته وهو ربط الحياة الدنيوية بالحياة

الأخرية، وما هذه الحياة إلا جسر عبور إلى خلود الآخرة، وبهذا المنطق فإن الإنسان المسلم يستحضر مفاهيم وأبعاد الاستدامة المادية منها والروحية في شتى مناحي الحياة.

ومن جانب آخر جاءت الشريعة الإسلامية لحفظ الكليات الخمس وتحقيق المقاصد الشرعية، وإذا تأملنا في محددات الكليات الخمس ومنطلقاتها المتمثلة في حفظ الدين والنفس والعرض والمال والعقل، وجدناها تمثل أبعاداً للتنمية المستدامة في الإسلام في جانبها الروحي والمادي، حيث أن حفظ هذه الكليات يمثل قاعدة أساسية في الشريعة الإسلامية ألا وهي جلب المصالح ودرأ المفاسد في كل الأزمنة والأمكنة.

ثانياً/ في استنباط مواطن الاستدامة في فكر مالك بن نبي

باعتبار مالك بن نبي من أهم المفكرين الحضاريين السائرين على نهج ابن خلدون في التحليل والاستنباط والتفكير، وبحكم تكوينه التقني فإن مجمل أفكاره تميل إلى المنطق التقني الرياضي القائم على المسلمات والبيدهيات ومحاولة إسقاطها على الفكر الحضاري ومنطلقاته، وبحكم أن هذه الدراسة تهدف أساساً إلى التفصيل في محددات بناء الإنسان المستدام والانتقال من الاقتصادانية المادية إلى الاستدامة الإنسانية، فسيتم التركيز في هذا المحور على استنباط مواطن الاستدامة لبناء الإنسان المستدام من خلال ما جاد به المفكر مالك بن نبي فيما يخص التنمية الاقتصادية وربطها بالفكر المستدام.

1- في بناء الإنسان المستدام من خلال فكر مالك بن نبي

يقول مالك بن نبي في كتابه شروط النهضة: "يجب أولاً أن نصنع رجالاً يمشون في التاريخ، مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى". (بن نبي، 1986، ص. 73)

الحديث عن الإنسان في فكر مالك بن نبي حديث لا يكفيه مقال أو مقالين وإنما يستوجب تأليف مؤلفات وكتابة كتب ومقالات وبحوث مطولة، لأن الإقلاع الحضاري رهين بالإنسان في مختلف جوانبه التربوية والثقافية وحتى التاريخية.

وفي الإسلام ومن خلال السيرة النبوية الشريفة ركز الرسول صلى الله عليه وسلم في بداية دعوته على بناء الرجال المؤمنين الذين يبلغون رسالة ربهم وتعاليمه إلى البشرية كافة، ونفس المنهج اتخذته جمعية العلماء المسلمين بزعامة الشيخ عبد الحميد بن باديس، وهي أول تيار فكري وديني تأثر به المفكر مالك بن نبي، وفي تحديده لمنطلقات الإقلاع الحضاري ركز بن نبي على بناء الإنسان كمحور لهذا الإقلاع في شتى مجالاته المختلفة، ففي كتابه شروط النهضة حدد بن نبي عناصر الإقلاع الحضاري متمثلة في معادلة ثلاثية أطرافها (الإنسان، التراب، الوقت)، بالإضافة إلى الدين كمركب ومحرك لهذه العناصر، فالإنسان في فكرة يعتبر الركيزة الأساسية لأي حضارة إنسانية وقاعدة الانطلاق والاستمرارية والنجاح في أي مشروع حضاري وفي أي مجال من مجالاته.

"إن المتمعن في كتابات مالك بن نبي الفكرية يمكنه الجزم بأنها كتابات في التربية بالمعنى العام للكلمة، فإذا كانت هذه الكتابات تتمحور حول فكرة الحضارة ومشكلاتها، إذ أنها تنطلق من الحضارة لكي تصل إليها، فإنها تجعل من الإنسان حجر الزاوية في عملية التغيير المرتقب وهو مستهدف من هذا التغيير في نهاية المطاف، فعن طريق التربية يرتقي الإنسان من حالة (الفرد) المرتبط بالنوع الإنساني إلى حالة (الشخص) الذي يرتبط بالجماعة وبالإنسانية برمتها ليساهم من ثم في تطويرها وتحضرها". (بوعزة، 2015، ص.295)

ومن هنا أجمع قراء فكر مالك بن نبي أن مشكلة الإنسان بالنسبة له شكلت محورا هاما في عملية البناء والإقلاع الحضاري، انطلاقا من تشخيصه للواقع العربي والإسلامي المتدهور آنذاك، وأن الحل الوحيد للتخلص من هذا الركود الحضاري هو بناء الإنسان الحضاري بصناعاته ثقافيا ونفسيا واجتماعيا بقرأة التاريخ وتماشيا مع القاعدة القرآنية المقررة بأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

"إن حل مشكلة الإنسان يكون في عناصر ثلاثة هي: "توجيه الثقافة وتوجيه العمل وتوجيه رأس المال، وحل مشكل الأرض يكون بغرس قيم العمل والعمل الاستراتيجي للإصلاح الزراعي واستخدام الموارد المتاحة وحسن استغلالها، وحل مشكلة الوقت باستبدال زمنية العدم والتلاشي بزمنية الفعل والنشاط والتوجيه المستقبلي". (ولد أباه عن مالك بن نبي، 2010، ص.136)

وفي توجيه الثقافة ينطلق ابن نبي من قاعدة أن كل تفكير في مشكلة الإنسان هو تفكير في مشكلة الحضارة، وكل تفكير في مشكلة الحضارة هو في الأساس تفكير في مشكلة الثقافة، باعتبار الحضارة في جوهرها مجموعة من القيم الثقافية المحققة، وأنه إذا ما أريد للنهضة أن تبرز إلى عالم الوجود فإن علينا أن نواجه مشكلة الثقافة في أصولها، فالإنسان كما تبين لنا هو العنصر الأساسي الذي يحدد مضمون المعادلة الحضارية من خلال حركيته وفعالته، وهذه الأخيرة هي خلاصة ثقافة يتشربها الإنسان في محيطه الاجتماعي الذي يكتنف وجوده، ولقد عالج ابن نبي الثقافة وانطلق في تحليلها من إطار المشكلة لا بدافع التشاؤم والسلبية، وإنما بدافع التغيير والنهضة إدراكا منه أنها المدخل الأساسي لعمليات البناء الحضاري". (سعود، 2006، ص.210)

أما توجيه العمل فهو الحلقة الثانية من مشكلة الإنسان، ورغم أنه ليس عنصرا أساسيا كالإنسان والتراب والوقت، إلا أنه يتولد من هذه العناصر، وتوجيه العمل هو تكتيل الجهود الجماعية لتصب في اتجاه واحد يحقق أهداف المجتمع، وابن نبي عندما يتحدث عن العمل فإنما يبسط مفهومه ليشمل ما يمكن أن نعهده في نظرنا تافها لا قيمة له، ولكنه في حقيقة الأمر يكتسي أهمية بالغة". (سعود، 2006، ص.210)

وقد حدد مالك بن نبي الأبعاد المختلفة التي تشكل الإنسان وعددها في: البعد الروحي، والبعد المورفولوجي، والبعد الوجداني، والبعد العقلي.

أما البعد الروحي فهو عند مالك بن نبي مرتبط بظهور الحضارة في أمة من الأمم واكتشاف الإنسان لأسمى الأشياء، حيث قال في هذا الخصوص: "الحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء، يكون للناس شرعة ومنهاجا، أو هي -على الأقل- تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام، فكأنما قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية، أو بعيدا عن حقبته إذ حينما يكتشف حقيقة حياته الكاملة، يكتشف معها أسمى معاني الأشياء التي تهيمن عليها عبقريته، وتتفاعل معها". (بن نبي، 1986، ص.73)

وقد أولى مالك بن نبي في فلسفته الحضارية اهتماما كبيرا بالجانب الروحي للإنسان في بناء الحضارة بقوله: "يجب على الإنسان أن يشرب ويأكل وينسل ويملك، ويكافح من أجل استمرار النوع، ولكنه يجب أن يراقب هذه الأعمال الأولية جميعها، وأن يوجهها لغايات تتفق وتقدم النوع... ومع ذلك فهو محكوم إذا ما نظرنا إلى الأمور من الوجهة الدينية، تبعا لهذا الاشتراك المنوط بتكليفه الديني، أعني تبعا لخضوعه لقانون التقدم الأخلاقي، فإذا ما حملته طبيعته على العمل فإن ضميره هو الذي يعطي لعمله معنى تاريخيا وأخلاقيا" (العابد عن مالك بن نبي، 2014، ص.105)

وفيما يخص البعد المورفولوجي فيرى ابن نبي أن للفرد بصفته عاملا أوليا للحضارة قيمتان: الأولى منها خام، والأخرى صناعية، أي أن الأولى طبيعية والثانية اجتماعية؛ أما القيمة الأولى فهي موجودة في التكوين البيولوجي لكل فرد، وتتمثل في استعداده الفطري لاستعمال عبقريته وترابه ووقته...، وأما القيمة الثانية فإنه يكتسبها من وسطه الاجتماعي، وتتمثل هذه القيمة في الوسائل التي يجدها الفرد في إطاره الاجتماعي لترقية شخصيته وتنمية مواهبه وتهذيبها، ويعتبر الضمير المحدد الذي يعطي لعمل الإنسان معنا تاريخيا وأخلاقيا، وليس هذا الضمير إلا العنصر الديني الذي يغذي الجذور النفسية للفرد، والذي يتدخل مباشرة في العناصر الشخصية التي تكون "الأنا" الواعية في الفرد، وفي تنظيم الطاقة الحيوية التي تضعها الغرائز في خدمة هذه "الأنا". (العابد عن مالك بن نبي، 2014، ص.105، 106)

ورغم عدم اهتمام مالك بن نبي بالبعد الوجداني اهتماما مباشرا، إلا أنه لم يغفله عند تحليله لمشكلة الثقافة، حيث اعتبر عنصر الجمال وما يرتبط به من حسن وقبح عنصرا أساسيا في تشكيل الثقافة وفي حل المشكلات التي تواجه مجتمعا ما، ولذلك فقد خصص لمشكلة الثقافة محورا تحت عنوان "التوجه الجمالي" لدراسة تأثير الجمال في الوجدان والإدراك والسلوك، فقال: "لا يمكن لصورة قبيحة أن توحى بالخيال الجميل أو الأفكار الكبيرة، فإن لمنظرها القبيح في النفس خيالا أقيح، والمجتمع الذي ينطوي على صور قبيحة، لابد أن يظهر أثر هذه الصور في أفكاره وأعماله ومساعيه"، ويرى بن نبي أن تصور الجمال لا ينفصل عن عمل الخير، وأنه منبع الأفكار، ولكونه كذلك فإنه ذو أهمية اجتماعية حيث تصدر عنه أعمال الفرد في المجتمع، ونظرا لتأثير الجمال في جميع جوانب الحياة

(الألوان والروائح والأصوات والإدراك والسلوك) فإن بن نبي يعتبره "دستور الجمال الذي يطبع صورة الحسن أو القبح في النفس الإنسانية". (العابد عن مالك بن نبي، 2014، ص.107)

أما البعد العقلي فيقر بن نبي من البداية أن الحضارة لا تصنعها كومة من الأشياء المستوردة، وإنما هي بناء تطبعه فكرة معينة، وبدون الجانب الروحي والجانب العقلي فإن عالم الأشياء ليس إلا عبارة عن تراكم أبله جامد لا معنى ولا طعم له مهما كان بريقه وإغراؤه ظاهريا، ولكي يكون الجانب العقلي فعلا فعليه أن يركز على المنطق العملي وهو كيفية ارتباط العمل بوسائله ومعانيه. (العابد عن مالك بن نبي، 2014، ص.108)

يلاحظ من خلال ما ذكر سابقا تركيز مالك بن نبي على الجوانب والأبعاد المتحدة في تكوين الإنسان بداية بالجانب الروحي كحجر زاوية في أي إنسان، ثم البعد التكويني المزدوج بطبيعته البيولوجية والاجتماعية، أما البعد الوجداني فهو مرتبط بالجمال المحدد بصفة الحسن ونبذ القبح، وفيما يخص البعد العقلي فهو مرتبط بالعمل المرتكز على المنطق العملي المرتبط بالوسائل والمعاني، وكل هذه الأبعاد مبنية على عملية التوجيه الثقافي والعملي للإنسان دون الخروج عن المركب العام ألا وهو الدين، وفي أبجديات التربية والاجتماع فإن بناء الإنسان وتكوينه لا ينفك عن الطريقة والأسلوب الأصح المتمثل في التربية السليمة والقويمة، ومالك بن نبي لم يغفل عن هذه النقطة الأساسية بل تطرق وأسهم في مجال التربية اسهاما كبيرا.

فالتربية عند مالك بن نبي ليست بنفس الاصطلاح والمفهومية التي نلمسها عند علماء الاجتماع ومنظري التربية، فهي عنده عبارة عن "عملية تثقيف متواصلة"؛ تتمثل عملية التثقيف هذه في تلك العملية النفسية التي تقوم في أولى مهامها بتركيب عناصر ثقافة المجتمع في بنية شخصية الفرد أي في بنية إنسان ما بعد الحضارة، والتربية عنده عبارة عن عملية كما هي عبارة عن مشكلة، بالإضافة إلى أنها مفهوم ومنهج قائم في حد ذاته، وأنها تنشئة اجتماعية وتمثل للقيم وانتظامها في سلوك الفرد وعملية ضبط اجتماعي وتحضر واكتساب خبرات وتطبع. (العابد، 2014، ص.108)

ومما سبق يمكن القول أن بناء الإنسان المستدام في فكر مالك بن نبي لا يتم إلا عن طريق التربية بتركيب عناصر ثقافة المجتمع في الفرد أي في بنية الإنسان، والتربية عنده هي تربية شاملة روحية وعقلية وتكونية ووجدانية، بالإضافة إلى وجوب توجيهه وفقا لمركب الدين الذي يعتبر القاطرة التي تقود معادلة الإنسان والوقت والتراب، وبذلك نصنع إنسانا مثقفا وموجها ومستمر تاريخيا وحضاريا.

2- في الاقتصادانية المادية والتنمية الحقيقية لدى مالك بن نبي

إن أول ما ابتدأ به مالك بن نبي في تفصيل وتبيين عنصر توجيه العمل في كتاب شروط النهضة، حديث شريف للرسول صلى الله عليه وسلم، وهو ما روي عن المقدام رضي اللهم عنه عن

رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: " مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلٍ يَدُوهُ وَإِنْ نَبِيُّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلٍ يَدُوهُ " (رواه البخاري). (بن نبي، 1986، ص.106).

يقول مالك بن نبي: "إن توجيه العمل في مرحلة التكوين الاجتماعي بعامة يعني سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد، بما في ذلك جهد السائل، والراعي، وصاحب الحرفة، والتاجر، والطالب، والعالم، والمرأة، والمثقف، والفلاح، لكي يضع كل منهم في كل يوم لبنة جديدة في البناء". (بن نبي، 1986، ص.106)

ويقول في موضع آخر ضمن صفحات كتاب **المسلم في عالم الاقتصاد** حول ما تعنيه الاقتصادية: "والاقتصادية إنما هي فقاعة غاز لا تحوي أي واقع اقتصادي، بل هو أسوأ، إنها ظرف يبدي ألوان قوس قزح للألاء براقه، إنه يحوي أوهاماً خلاصة وتناقضات تدعو للسخرية، إن الاقتصادية أو المعاشية لم ينزل بها قرآن من السماء، بل أفرزتها كائنات أميبية جسدت القابلية للاستعمار وتجسد التخلف اليوم، وهي عموماً تعني بادئ ذي بدء استبداداً أي تقييداً جديداً لحرية التصرف، فيه يلتهم المشرع الاقتصادي القيم الأخلاقية والمدنية كلها لأبناء الشعوب المستعمرة حتى يعززوا كما يزعمون، الاستقلال السياسي الذي اكتسبه الشعب"، ويضيف قائلاً: "إن ابتغت الاقتصادية أن تفعل خيراً فإنها تتصور شؤون المجتمع الإنساني تصور تسيير لمطعم حقير يتم حسابه بعمليتين اثنتين: جمع لما يدخل من مال، وطرح للنفقات". (بن نبي، 1987، ص.ص.37،38)

من خلال هذه الأقوال لمالك بن نبي يمكن التفصيل في معنى الاقتصاد وكيف يمكن الانتقال من الاقتصادية المادية إلى تنمية اقتصادية حقيقية مستمرة ومستدامة في ظل ما طرحه من أفكار اقتصادية تبلورت في مجملها وشكلت نظرية اقتصادية تنسب إلى الفكر البنابي.

إن **الاقتصاد** حسب رأي مالك بن نبي ليس قضية إنشاء بنك أو تشييد مصنع، بل هو قبل ذلك "بناء" الإنسان وإنشاء سلوكه الجديد أمام المشكلات المختلفة، فالإنسان عند مالك بن نبي هو محور العملية الاقتصادية التي هي الخميرة الأساسية لتشكيل ما يسمى بالحضارة مع عدم إغفال عنصر الزمن الذي له نفس القيمة الإنسانية، وهذا ما يدفع بالأمة إلي تمجيد العمل من خلال قيامها بالواجب وليس عن طريق المطالبة بالحق فقط، وفي ذلك يقول: "هناك عنصر آخر يتمتع بالطابع النفسي ويجب أن نحسب له حسابه في هذا المجال، ذلك العنصر هو فكرة الزمن التي تعد أساسية جداً في تنظيم العمل في العالم الحديث تبعاً لنظرية تيلور، لقد سيطرت هذه النظرية على مفاهيم المقدر الإنتاجية، فساعة " الكرونومتر" التي تستخدم في حساب الثواني وفي تسعير الإنتاج وليس قولهم: الوقت عملة من قبيل اللعب بل هو تعبير دقيق عن الواقع المادي في نظر الإنجليز. (ملوكي عن مالك بن نبي، 2013، ص.123).

أما **الاقتصادية** كما أسلفنا الذكر تعني الفوضى في الأنشطة المالية، ضروب التبديد والتبذير والعشوائية في صرف الأموال، دون دراسة لمشاريع الاستثمارات المالية، بما يقابل (البوليتيكا) في السياسة، وكلاهما مظهر للقابلية للاستعمار؛ ما جعل مالك بن نبي يضع المشكلة في إطارها الصحيح

كمشكلة تربوية، حيث لا بد أن توضع ضمن برنامج تربوي يثمن قيمة الإنسان أولاً (بما كرمه الله وجعله خليفة) ثم قيمة الزمن (الزمن هو الحياة وهدره قتل لها) واعتبار العمل عبادة، ثم تثمين قيمة المادة كوسيلة تنمية، واعتبار كل عمل تذبيري في عالم الأشياء عمل شيطاني يعاقب عليه، ولهذا يجزم مالك أنه لا يمكن تغيير الوضع الاقتصادي إلا بتغيير اجتماعي بتطبيق خطة تنمية تفتق أبعاده النفسية وتخلصه من تركة عصر ما بعد الموحدين، من خرافاتها وعقدها ومسلّماتها الوهمية. (قلاتي عن مالك بن نبي ، 2016، ص.388)

هذا فيما يخص المنطلق الاقتصادي ومحددات الاقتصادانية المادية في فكر مالك بن نبي، أما في تناوله لمفهوم التنمية فهو لا يعزله عن مفهوم التخلف، فإذا ما تم تحديد مؤشرات التخلف يمكن الانتقال إلى التنمية بطريقة آلية محكما في ذلك العنصر الأساسي ألا وهو الإنسان.

"ويؤسس مالك بن نبي لفكرة التنمية من مدخل متكامل بأخذ بالنظرة الكلية للمجتمع، ورفضاً للتفسيرات الجزئية والتبضية لها، وذلك أن المجتمع وحدة كلية تتربط أجزاءها، وتتساند فيما بينها، ولا يمكن أن تفهم إلا من خلال علاقتها بالأعضاء الآخرين، أي أن فهم أي نظام أو ظاهرة اجتماعية لا يتم إلا في ضوء علاقتها بالسياق الاجتماعي العام الذي توجد في إطاره، أي أننا عند دراسة ظاهرة التخلف لا بد من مراعاة كافة مكونات البناء الاجتماعي مثل البناء الديمغرافي، والنسق الإيكولوجي، والنسق الاقتصادي، والنسق السياسي، والنسق التعليمي، والنسق القرابي والبناء الطبقي... الخ. (العابد عن مالك بن نبي، 2012، ص.154)

فإذا فسرنا التنمية على أساس أنها حركة ونشاط اقتصادي مستمر يحقق فائضا في الإنتاج ويرفع من مستوى الدخل الفردي ويوفر الضمانات الاجتماعية للفرد؛ فإن التخلف يشكل - في المقابل - عند مالك بن نبي كساد الطاقات الاجتماعية؛ وهو أن تتحول عناصر الحضارة إلى كم مهمل؛ إنسان حائر في زمن ضائع على تراب بائر...!!، وهو ما نلمسه اليوم في دول العالم العربي التي تُصنّف ضمن ما يُسمى بدول العالم الثالث، ومنها تلك الدول التي تعتمد على ما يسمى (الاقتصاد الريعي)؛ أي الاعتماد شبه الكلي في صادراتها على ما حباها الله به خيرات الطبيعة وخاصة البترول. (قلاتي عن مالك بن نبي ، 2016، ص.385)

كما أن التنمية الاقتصادية الناجحة تتم وفق دراسات علمية منهجية، تأخذ بعين الاعتبار المعادلة الاجتماعية للمجتمع، وهي قبل كل شيء استثمار اجتماعي قبل أن تكون استثمارا ماليا، وهذا هو الاقتصاد الذي يقوم على الاستثمار في العنصر الأول للمعادلة الحضارية؛ وهو الإنسان، تعمل على زرع الإرادة الحضارية في نفسه، (تحقيق الجانب النفسي والاجتماعي في الإنسان)، ليكون إنسانا فعّالا، إذ إن القاعدة التنموية هي أن لا تنمية مادية دون تنمية بشرية؛ ببناء الإنسان الرسالي الفعال، والذي بإمكانه استثمار التراب (المادة) والزمن. (قلاتي عن مالك بن نبي، 2016، ص.387)

ولا تتحقق التنمية، ولا يمكنها أن تتحقق، بتكديس الأشياء أو باقتباس حلول من الشرق أو من الغرب، دون مراعاة المعادلة الاجتماعية (الخصوصيات الثقافية لكل مجتمع) للأمة الإسلامية، وأساسها

القيم الدينية، اللغة، العادات... وهذا ما يفسر به مالك فشل تجربة الخبير الاقتصادي الألماني (شاخت) في (إندونيسيا)، بينما نجحت خطته في بلده ألمانيا، وعلى هذا التأسيس الفكري يشير بن نبي إلى خلل في الفكر الاقتصادي عندنا في ناحيتين؛ الأولى حصر الاختيار بين مذهبين؛ اشتراكي ورأسمالي دون التنبه إلى وجود مذهب ثالث خاص بالمجتمعات الإسلامية؛ أي مذهب ينطلق من الخصوصية الثقافية للمجتمع المسلم، والثانية حصر النشاط الاقتصادي في الاستثمار المالي وحده، في حين أن القضية تتعلق بالإنسان ذاته بإرادته في البناء الحضاري لا في عالم أشيائه أي إمكانه الحضاري، وهنا لب القضية. (قلاتي عن مالك بن نبي، 2016، ص، ص.387،388)

مما سلف يتبين أن الإقلاع الاقتصادي لدى مالك بن نبي لا يختلف عن الإقلاع الحضاري العام مع جزئياته، فالإنسان هو حجر الزاوية والعصب الرئيس في أي إقلاع جزئي ضمن الإقلاع الكلي، فعليه تُقعد وتبنى كل القواعد والأسس للانطلاق الحضارية المستمرة والمتواصلة في شتى مجالاتها، وتم التحدث مسبقاً عن عنصري توجيه الثقافة وتوجيه العمل، وستتم الإشارة إلى العصب الرئيس في الاقتصاد ألا وهو توجيه رأس المال حسب الفكر البنابي.

"إن توجيه رأس المال في الفكر البنابي معناه إيجاد منهج سليم لحركة الأموال في المجتمع وتوظيفها في خدمة الصالح العام والخاص معاً، فيجب ألا تطغى إحدى المصلحتين على الأخرى حتى لا يتحول الأمر إما إلى رأسمالية متطرفة أو إلى اشتراكية متعفنة، بل يجب أن يكون الطريق الوسط هو الذي يسلكه رأس المال، وإن كان رأس المال لم يتكون بعد في البلاد الإسلامية كما يرى مالك بن نبي، فهي لا تواجه مشكلة الرأسمالية لأن رأس المال نفسه لم يتكون بعد في غالب تلك البلاد، وإذن فالمشكلة التي كانت تعانيها أوروبا في ذلك التاريخ لا تهم العالم الإسلامي اليوم، أو تمسه في شيء فقد انتفت من بلادنا المشكلات التي خلفها رأس المال في أوروبا". (ملوكي، 2013، ص، ص.136،137)

وفي عمليتي **الإنتاج والاستهلاك** يتحدث مالك بن نبي عن شروط الديناميكية الاقتصادية الصحيحة والفعالة والتي يحصرها في مسلمتين أساسيتين هما:

- "لقمة العيش حق لكل فم"؛ وهو اختيار يجب تدوينه في الدستور (عقد أخلاقي اجتماعي).
- "العمل واجب على كل ساعد"؛ بمثابة ضرورة تفرضها المسلمة الأولى كشرط لاستمرار التفاعل وضمن جدلية على مستوى الإنتاج والاستهلاك.

ومن خلال ما سبق ذكره فيما يخص الاقتصادية والتنمية الحقيقية في الفكر البنابي، يتبين أن الفوضى الاقتصادية وطغيان رأس المال على المظهر الاقتصادي والتشتت والتبذير والتبديد وعدم التخطيط تشكل في عمومها اقتصادية مادية، أما الاقتصاد الحقيقي فهو القائم على روح الحضارة ولها ألا وهو الإنسان بتثقيفه وتوجيه ثقافياً وعملياً ورأسالياً، والتنمية الحقيقية هي تلك القائمة على الاقتصاد الحقيقي بمفهومه البنابي المستمر في الزمان والمكان، وأي تنمية تنطلق من الإنسان

وتتخذها اللبنة الأولى تبنى كل جوانبها الأخرى على قاعدة صحيحة ومتمينة، وبذلك تصبح تنمية مستدامة مستمرة ومتواصلة قائمة على مبدأ العدالة الاجتماعية الحاضرة والمستقبلية.

3- في استنباط مفهومية الاستدامة الإنسانية في فكر مالك بن نبي

لا يمكن تحقيق الاستدامة الإنسانية إلا إذا حققنا وصنعنا الإنسان المستدام، والاستدامة الإنسانية بمفهومها الإنساني الاستمراري إذا أسقطناها على الفكر البنابي وحاولنا استنباط مواطن الاستدامة فيه، نجدها وكأنها تتماثل مع فكرة الإقلاع الحضاري التي جاء بها المفكر مالك بن نبي محددًا شروطها وركائزها من خلال كتاب شروط النهضة، حيث يمكن القول إن كتاب شروط النهضة هو كتاب لبناء الاستدامة الإنسانية تبعًا لبناء الإنسان المستدام.

فعن الرؤية الحضارية يقول "مالك بن نبي" إن الحضارة قيم كونية، ومسار إنساني موضوعي (سنن إلهية لا تتغير) مفتوح لمختلف الأمم من منطلق خصوصياتها: «إن من الواجب ألا نوقفنا أخطأنا عن السير الحديث نحو الحضارة الأصلية توقفنا خشية السخرية أو الكوارث، فإن الحياة تدعونا أن نسير دائمًا إلى الأمام... حتى ترى أن الحضارة ليست أجزاء مبعثرة ملفقة ولا مظاهر خلافة وليست الشيء الوحيد بل هي جوهر ينتظم جميع أشتائها وأفكارها وروحها ومظاهرها، وقطب يتجه نحوه تاريخ الإنسانية. (ولد أباه عن مالك بن نبي، 2010، ص. 137)

فالحضارة عند بن نبي مفهوم كوني يتجاوز الخصوصيات الدينية، ولها قانون كلي يصوغه على شكل معادلة كيميائية (الحضارة = إنسان + تراب + وقت)، ويوضح هذه المعادلة بقوله: «إن مشكلة الحضارة تتحلل إلى ثلاث مشكلات أولية: مشكلة الإنسان، مشكلة التراب، مشكلة الوقت؛ فلكي نقيم بناء حضاري لا يكون ذلك بأن نكدس المنتجات، وإنما بأن نحل هذه المشكلات الثلاثة من أساسها. (ولد أباه عن مالك بن نبي، 2010، ص. 136)

ويعتبر بن نبي أن العامل الديني هو الذي يؤثر في مزج هذه العناصر فيما بينها، بيد أنه يأخذ الدين هنا بمعناه الأنثروبولوجي الواسع أي العلاقة بالمقدس المؤسس، فالحضارة لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية، وينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها. (ولد أباه، 2010، ص. 136)

يتبين أن الحضارة عند مالك بن نبي هي ذلك الكل المكون من معادلة أطرافها الثلاثة الإنسان والتراب والوقت، والدين كعامل مركب ومحرك لهذه المعادلة، كل ذلك في سياق تاريخي مستمر على أن يكون الإنسان هو ربان هذه السفينة الحضارية في كل اتجاهاتها الثقافية والعملية والاقتصادية، والتنمية المستدامة بمفهومها الوضعي هي تنمية مستمرة للحفاظ على التطور في مجالاته الاقتصادية والبيئية والاجتماعية، أما من المنظور الإسلامي فهي تتعدى ذلك إلى الجوانب الروحية والأخلاقية.

ومالك بن نبي من خلال طرحه لفكرة الحضارة والإنسان والدين والتاريخ والتوجيه بمختلف مؤشرات، يبلور فكرة التنمية المستدامة في عصره حتى وإن لم يكن بنفس التسمية ولكن بنفس الخصائص والمميزات، بل تعدى طرحه ليشمل المنظور الإسلامي للتنمية المستدامة حين حدد البعد الروحي كأسمى بعد للتنمية المستدامة.

خاتمة ونتائج الدراسة

وفق منهجية الوصف والتحليل والاستنباط، والتعمق في محاور الدراسة وتفصيلها تم توضيح الاختلافات المحورية بين مفهوم التنمية المستدامة في الفكرين الوضعي والإسلامي، والتطرق إلى معالم الاستدامة في فكر بن نبي وكيفية الانتقال من الاقتصادانية المادية إلى الاستدامة الإنسانية، وتبيين معالم وركائز بناء الإنسان المستدام، من خلال ذلك كله تم اختتام الدراسة باستخلاص النتائج التالية:

- مفهوم التنمية المستدامة من خلال المنظور الإسلامي أوسع وأشمل من المنظور الوضعي، حيث أن المنظور الوضعي يركز على الأبعاد البيئية والاقتصادية والاجتماعية وربما الثقافية، بينما المنظور الإسلامي يتعدى المنظور الوضعي إلى البعد الروحي الذي هو جوهر الإنسان وموجهه في الحياة.
- بناء الإنسان المستدام في فكر مالك بن نبي هو الركيزة الأساسية للإقلاع الحضاري بمختلف مكوناته، يكون مستداما بتوجيهه ثقافيا وعمليا وأخلاقيا وروحيا ووجدانيا، عن طريق التربية التي تعتبر بمثابة السبيل لبناء إنسان مستدام يمضي في التاريخ لتحقيق أهدافه.
- الاقتصاد الحقيقي عند بن نبي هو الاقتصاد القائم على التوجيه والتخطيط والعدالة والمساواة واستغلال الطاقات، عكس الاقتصادانية القائمة على الزيف والعبثية والتبديد والتبذير وتغليب المادة على الروح والعلاقات التفاعلية الاجتماعية.
- الاستدامة الإنسانية في فكر مالك بن نبي هي نتيجة حتمية لبناء الإنسان المستدام، ومفهومية الحضارة في الفكر البنابي تشمل وتتعدى مفهوم الاستدامة بالمنظور الوضعي، وذلك باستدامة روحية وأخلاقية مستمرة ومتواصلة في ثنايا التاريخ والمستقبل.

ومن أهم التوصيات التي توصي بها الدراسة بناء على نتائجها، ضرورة التعمق والبحث أكثر في مفهوم التنمية المستدامة من خلال المنظور الإسلامي، فمفهومه أشمل وأوسع من كل المفاهيم الأخرى، إنما يحتاج فقط إلى بحث معمق ومنهج، إضافة إلى الحث على دراسة فكر مالك بن نبي وكتاباته دراسة علمية وفعلية ممنهجة وموجهة ضمن تخصصات العلوم الإنسانية والاجتماعية وكل تفرعاتها، ففكره مبني على الإنسان وكيفية تكوينه وبنائه وجعله الوحدة الأساسية في أي بناء حضاري عادل وشامل، ونماذج الدول التي تبنته وحذت حذو التقدم والتطور والبناء لأفضل دليل وإقناع على مدى نجاعة فكره الذي تعدى زمانه ومكانه.

قائمة المصادر والمراجع

- أبو نصر، مدحت وياسمين مدحت محمد. (2017). *التنمية المستدامة مفهومها أبعادها مؤشراتها*، ط1. القاهرة: المجموعة العربية للتدريب والنشر.
- بن نبي، مالك. (1986). *شروط النهضة*. ترجمة عبد الصبور شاهين. دمشق: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر.
- بن نبي، مالك. (1987). *المسلم في عالم الاقتصاد*. ط3. دمشق: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر.
- الجبوسي، عودة راشد. (2013). *الإسلام والتنمية المستدامة رؤى كونية جديدة*. النسخة الثانية. عمان: مؤسسة فريدريش ايبرت.
- سعود، الطاهر. (2006). *التخلف والتنمية في فكر مالك بن نبي*. ط1. بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر.
- كلاوي، رامي لطفي. (2013). *حوار حول هدي الإسلام في التنمية المستدامة*. ط1. دبي: دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري (إدارة البحوث).
- ولد أباه، السيد. (2010). *أعلام الفكر العربي مدخل إلى خارطة الفكر العربي الراهنة*. ط1. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
- بوعزة، صالح. (2015). *قراءة تحليلية لمقاربة مالك بن نبي في بناء الأفراد وإصلاح المجتمعات العربية في ظل العولمة الثقافية. مجلة تنمية الموارد البشرية. جامعة سطيف 2. (6)1. 284-318*. متوفر على الرابط الإلكتروني التالي: <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/24608>
- العابد، ميهوب. (2012). *مفهوم التنمية في فكر مالك بن نبي. مجلة علوم الإنسان والمجتمع. جامعة بسكرة. العدد 02. 137-172*. متوفر على الرابط الإلكتروني التالي: <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/47397>
- قلاتي، البشير. (2016). *الأفكار الاقتصادية عند مالك بن نبي. مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. (30)2. 379-394*. متوفر على الرابط الإلكتروني التالي: <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/1348>
- ملوكي، سليمان. (2013). *النظرية الاقتصادية عند مالك بن نبي من خلال ثلاثية: توجيه رأس المال، توجيه العمل وتوجيه الوقت. مجلة العلوم الاقتصادية والتسيير والعلوم التجارية. جامعة المسيلة. العدد 10. 122-141*. متوفر على الرابط الإلكتروني التالي: <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/13002>
- عشي، صليحة. (2012). *التنمية المستدامة في المنهج الإسلامي. ورقة بحث مقدمة إلى الملتقى الدولي حول: مقومات تحقيق التنمية المستدامة في الاقتصاد الإسلامي جامعة قالمة (الجزائر)*.
- الفقي، عبد القادر. (2004). *ركائز التنمية المستدامة وحماية البيئة في السنة النبوية*. ورقة عمل مقدمة إلى الندوة العلمية الدولية الثالثة للحديث الشريف حول: القيم الحضارية في السنة النبوية. متوفر على الرابط الإلكتروني التالي: www.nabialrahma.com
- العابد، ميهوب. (2014/2013). *الفكر التربوي عند مالك بن نبي. رسالة دكتوراه غير منشورة. جامعة محمد خيضر بسكرة الجزائر*.